المحور الثاني: المجتمع المشرقي في عهد الفاطميين.

المحاضرة 4: تركيبة وطبقات المجتمع:

هدف المحاضرة: تهدف المحاضرة الى تبيين الاعراق والطبقات المشكلة للمجتمع المشرقي في عهد الفاطميين.

عرف المجتمع الاسلامي المشرقي بما فيه الفاطمي زخما من الناحية الاجتماعية لعدة اعتبارات، فمن هي الأعراق التي ضمها المجتمع الفاطمي المشرقي؟ وما هي طبقات سكانه؟ وكيف كانت العلاقة بين هذه الاعراق والطبقات؟.

1- أعراق السكان:

كان لاتساع الدولة الفاطمية بالمشرق في سنيها الأولى بسيطرتها على مصر وجنوبها من بلاد السودان والشام والحجاز وشمال العراق واليمن، إضافة إلى امصار المغرب وجزر بحر الروم كصقلية، وكتائب الجيش التي توافد سكانها مع الفاطميين على المشرق، هذا الاتساع كان له أثر واضح في كثرة الأعراق السكانية المشكلة لمجتمع الدولة العبيدية، فنجد العرب والأقباط (اهل مصر) والبربر والسودان (اصحاب البشرة السمراء) والروم والصقالبة وانضاف إلى هؤلاء بعض العناصر الذين جلبهم الخلفاء كالأتراك والديلم (الديلم من بلاد فارس)، الذين اصطنعهم الخليفة العزيز بالله (365-386هـ/ 975-996م)، والأرمن، وهذا انعكاس لاتساع الدولة والجغرافي وامتدادها التجاري وعلاقاتها الخارجية، إضافة إلى عالمية الاسلام التي جذبت كل باحث عن التوحيد والعلم والحرية والرحمة، وهذا لأمر الاسلام بذلك والحرص على تطبيقه، قال عزوجل: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ الشورى 15؛ وهنا أمر الله تعالى رسوله أن يدعوالمشركين والذين أوتوا الكتاب والذين اهتدوا وأنابوا للدين الحق وأن يقيم بينهم العدل ولا يظلمهم لأجل عداوتهم له ولدينه، وقال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ البقرة 256؛ فلا يجوز إكراه أحد على الدخول في الإسلام لأنّه بيّن واضح جلي بدلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوّر بصيرته دخل فيه على بيّنة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنّه لا يفيده الدخول في الدين مكرها مجبرا، وقال ρ: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى

أَبَلَّغْتُ...»،وتشهد بذلك المستشرقة الألمانية زيغريدهونكه (ت1419ﻫ/1999م) مبينة سماحة الإسلام التي لا نظير لها بشهادتها: "(لا إكراه في الدين) هذا ما أمر به القرآن الكريم وبناء على ذلك فإنّ العرب لم يفرضوا على الشعوب المغلوبة الدخول في الإسلام فالمسيحيون والزرادشتية واليهود الذين لاقوا قبل الإسلام أبشع أمثلة للتعصب الديني وأفظعها سمح لهم جميعا دون أي عائق يمنعهم بممارسة شعائر دينهم، وترك المسلمون لهم بيوت عبادتهم وأديرتهم وكهنتهم وأحبارهم دون أن يمسوهم بأدنى أذى، أو ليس هذا منتهى التسامح؟ أين روى التاريخ مثل تلك الأعمال؟ ومتى؟ "، فتوافد على أمصار الاسلام مختلف الأعراق والديانات،فلم يُعرّف الإسلام الدولة على أسس عرقية أو جغرافية أو لغوية وإنّما على أساس ديني سمح وسماها دار الإسلام وما عداها دار الكفر، لذلك عم التواضع والتآخي الفريد، فاليهود مثلا عرفوا مجدهم الاجتماعي والاقتصادي وحريتهم الدينية في ظل الحكم الاسلامي فلم توجد حضارة في التاريخ عرفت كثرة الأعراق السكانية وتسامحا مع مخالفي الملّة من مختلف الاعراق كما كانت الحضارة الاسلامية.

كما تعدد المجتمع الفاطمي من حيث الطوائف الدينية كباقي المجتمعات الاسلامي، فكانت الغلبة للمسلمين أصحاب الدولة وقد انقسموا إلى سنة وهم الغالبية وشيعة أصحاب الخلافة والسلطة، وتواجدت عدة ديانات أكثرهم اليهود والنصارى، والنصارى أكثر عددا فالأقباط سكان مصر كانوا نصارى قبل الفتح الاسلامي، وكان هؤلاء أهل ذمة (تحت حماية المسلمين مقابل شروط واضحة) وقد تمتعوا بقدر كبير جدا من الحرية والسماحة وعاشوا جنبا الى جنب مع المسلمين وتمكنوا من شغل مناصب عليا في الدولة حتى أثاروا حفيظة المسلمين من ذلك وطالبوا الخلفاء بالتدخل.

وقد ساهمت جميع هذه الأعراق والديانات في إدارة الدولة حسب مناصبها، وأبرز هذه الأجناس العرب فقد ادعا الخلفاء النسب العربي القرشي وكان تواجد العرب كبيرا بمصر منذ فتحها وهم أهل المشرق الاسلامي وخاصة بالحجاز، وعلى العموم لا نجد لهم أثرا كبيرا في الدولة العبيدية خاصة في السلطة كحال أغلب الدول الاسلامية حتى العربية منها (باستثناء الأموية) لخوف حكام كل دولة من طموحاتهم السياسية ومكانة نسبهم بين بعض الأعراق.

أما باقي الأجناس فجوهر غازي مصر كان صقليا، والوزيران وقائدا الجيوش الفاطميان الشهيران بدر الدين الجمالي (465-487ﻫ/1073-1094م) وابنه الأفضل الجمالي (487-515ﻫ/1094-1121م) كانا إرمينيان، والكاتب الفاطمي منصور ابن عبدون الملقب بالكافي (ت401ﻫ/1011م) كان نصرانيا قبطيا، وكذلك الكاتب فهد بن إبراهيم النصراني (ت

393ه/1003م)، والوزير عيسى بن نسطورس (يقال أنّه اسلم وقد قتل في خلافة الحاكم) من أقباط مصر، وكان للبربر شان كبير في الدولة فقد كانوا قوام الجيش الغازي لمصر كما كان منهم القادة والوزراء على رأسهم القائد جعفر بن فلاح الكتامي الذي ساهم في غزو مصر وقاد غزو الشام والوزير الحسن بن عمار الكتامي (ت 390ه/999م)، ودخل الأتراك والديلم بقوة إلى الدولة

خريطة الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها

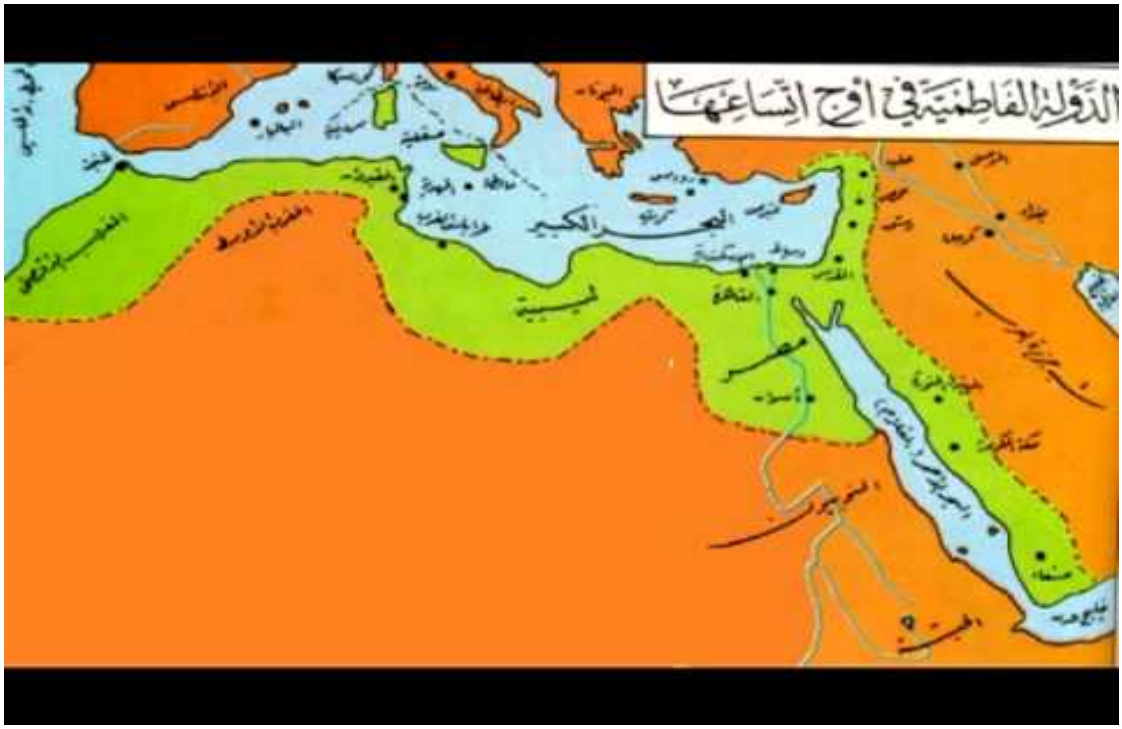

الفاطمية في خلافة العزيز بالله (365-386ه/ 975-996م) الذي جعلهم من خاصته وكان لهما حارة تعرف بحارة الاتراك والديلم، وأما السودان فقد تواجدوا بكثرة بمصر بشكل خاص، بفعل الامتداد الجغرافي بين مصر وبلاد السودان (المقصود هنا الاقليم الذي يسكنه أصحاب البشرة السمراء جنوب مصر والمغرب الاسلامي وليس السودان الحالي)، وكان أغلبهم من العبيد للجيش او جواري وزاد عددهم في خلافة المستنصر بالله (427-487ه/ 1035-1094م) الذي كانت أمه جارية سوداء وكانوا يكونون كتائب عسكرية ضخمة، وكذلك الصقالبة الذين دخلوا في جيش المعز وساهموا في الدولة كالوزير أبو الفتوح برجوان الصقلبي (ت 390ه/999م).

وكل هذا بفعل السماحة التي امتاز بها الفاطميون، إضافة إلى تفضيلهم للكفاءة والولاء على حساب النسب.

ونأسف اليوم في العالم الاسلامي لازدياد العنصرية بين المسلمين أنفسهم، حيث رجعت النزعات القبلية كما هو في ليبيا والسودان والصومال وغيرها من الدول، واستحقار وإبعاد لطوائف مسلمة مهاجرة من مدة بعيدة كما هو حاصل للبدونوالبرماوية في الخليج العربي.

ولكن يجب أن نشير إلى أنّ أحوال ومساهمات هذه الأعراق تذبذبت من عرق إلى آخر حسب الخلفاء، فكل خليفة قرب جنسا دون الآخر ومس هذا حتى الجيش الذي ضم بشكل خاص المغاربة والسودان والأتراك والديلم والأرمن، وكان لهذه السياسة أثر سيئ على الدولة وكانت من أسباب الضعف، حيث أدت إلى تنافس هذه العناصر على السلطة ووصل التنافس إلى استعمال القوة واستنفار كل فئة لأنصارها من الجيش كما كان يحصل بين الأتراك والسودانيين، كما شهدت سماحة الفاطميين بعض الانتكاسات التي حصلت في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله (386-411هـ/996-1020م)، الذي كان مضطربا في سلوكياته، وعرفت بعض سني عهده اضطهادا لبعض الطوائف كأهل الذمة.

2- طبقات المجتمع:

أصبح المجتمع الإسلامي بما فيه الفاطمي بعد القرن (2هـ/9م) أكثر طبقية وتمايزا بين فئات المجتمع بعد ضعف وتباطؤ حركة الفتوحات، والميل إلى حياة الترف، وللمؤرخين والباحثين أبحاث كثيرة وآراء متضاربة في تصنيف طبقات المجتمع الاسلامي عموما، وخلاصة أبحاثهم تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات خاصة وعامة وعبيد وأهل ذمة تحت كل طبقة فروع تندرج في إطارها.

الخاصة:وقدضمتالخليفة محاشيته ووزراءه وكباراالقادة ورجال الدولة، يأتي على رأسها الخليفة وقد تمتعت هذه الطبقة بالسيادة على باقي الطبقات وما يتبعها من التمتع دون رقيب بخيرات الدولة.

العامة:وشملت باقي السكان من أهل العلم وأصحاب الحرف والتجار والفلاحين، وتمثل غالبية سكان الدولة وكانت فئاتها متفاوتة في مستوى المعيشة فبعض التجار كانوا على قدر عظيم من الغنى.

العبيد:وتشمل العبيد الأبيض والخصيان كالصقالبة والعبيد الأسود وجواري الجنسين، وقد استطاعت هذه الطبقة أن تتواجد بين الطبقتين السابقتين، حيث استطاع بعض العبيد خاصة الأبيض من الصقالبة أن يصل إلى مناصب قيادية في الدولة كالوزير أبو الفتوح برجوان الصقلبي الذي كان عبدا خصيا وتدرج في المناصب حتى تقلد الوزارة، وكان لعبيد السودان مساهمة عسكرية كبيرة حيث كانت لهم كتائب خاصة بهم، كما كان للجواري الماهرات بالغناء بشكل خاص مكانة عند الخاصة ووصلت

بعض الجواري إلى قصور الخلفاء كأم الخليفة المستنصر بالله التي كانت جارية سوداء عند والده الظاهر لإعزاز دين الله (411-427هـ/1020-1035م).

أهل الذمة: وهم غير المسلمين في الدولة الاسلامية المتمتعين بحق المواطنة والحماية مقابل شروط معلومة ضبطتها الشريعة الاسلامية، وقد تمتعوا بأسمى درجات الرحمة واحترام الحقوق بما يسمح به الشرع ولم يتعرضوا لما يسوؤهم إلّا في خلافة الحاكم بأمر الله.

وقد كانت الفوارق الاجتماعية بين الطبقات كبيرة جدا خاصة من جانب الدخل المالي والأوضاع الاقتصادية، فقد تمتعت الطبقة الخاصة بحياة اقتصادية جيدة، مستفيدة من أموال الدولة كأجور وهبات، وهذا بالرغم من أنّ الفكر الشيعة الاسماعيلية ينادي إلى بناء عدالة اجتماعية إلّا أنّه لم يستطع تطبيق ذلك في الدولة العبيدية في مصر.

نتيجة لكل ما سبق يتبين لنا أنّ العبيديين بالرغم من انحرافاتهم الدينية الكبيرة إلّا انّهم حافظوا على تعاليم الاسلام السمحة في العدالة بين الأعراق المختلفة وفي معاملة غير المسلمين، إلّا أنّ هذه العدالة لم ترق إلى عدالة بين طبقات السكان من الناحية الاقتصادية والاجتماعية.